الشعر والشعراء تلقّيات وإدراكات معنوية.

المكان: طهران

الزمان: 1390/5/24ش. 1432/9/15هـ. 2011/08/15م.

الحضور: ثلّة من الشعراء

المناسبة: ليلة مولد الإمام الحسن المجتبى (ع)

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

بداية أُقدّم لكم التهاني والتبريكات [بمناسبة ذكرى ولادة الإمام الحسن بن علي (ع)]. وأتمنّى أن تملأ المسرّة قلوبكم، وتكون نفوسكم في ازدهار، وجهودكم إن شاء الله مأجورة ومباركة. إنّه لمن دواعي السّرور أن يتواصل هذا الجمع على مدى سنوات متوالية، وأسأل الله أن يستمر مستقبلاً أيضاً.

عسى أن لا يتفرّق شمل أصحاب الوفاء

ولا تتفكّك عرى سلسلتهم إلى يوم الجزاء

وأرجو أن يكون هذا دعاءً من جهة، وتعبيراً عن واقعٍ من جهة أُخرى.

أعرض بضعة مواضيع بإيجاز. أحدها حول واقع الشعر اليوم في بلدنا. يمكن طبعاً إعطاء رؤية أوسع حول الشعر الفارسي اليوم في البلدان المختلفة والتحدّث حوله انطلاقاً من هذه الزاوية، ولكننا نوكل هذا الموضوع إلى فرصة أُخرى. إن الشعر الحديث في بلدنا حالياً شعر متوثّب ومتقدم إلى الأمام. واليوم حين أنظر إلى شِعر الشباب على وجه الخصوص ــ حيث أنشَدَ في هذه الليلة عدّة أشخاص من شبابنا الأعزاء، وسائر الإخوان الرّواد في حقل شعر الثورة، قصائدهم ــ

أشعر بحصول تطوّر ملموس؛ أي إننا قد تقدّمنا في الشعر حقّاً. وهذا الكلام قُلته في العالم الماضي أيضاً.

لديّ ملاحظة لا بأس بالتحدّث عنها هنا، وهي أنني أجد وجهين من الشبه بين الشعر المعاصر في بلدنا وبين الشعر الفارسي خلال فترة مهمة وبارزة جداً امتدت لمائتي سنة؛ واعني بها فترة رواج وازدهار الأسلوب الهندي؛ وهي الفترة التي استمرت منذ أواسط القرن العاشر إلى أواسط القرن الثاني عشر، وشاع فيها الشعر على الطريقة الهندية وانتشر وتعالى. وأُشير أوّلاً إلى أن تلك الدورة التي استمرت على مدى مائتي سنة لا نظير لها من بعض الجوانب مقارنة مع كل الأدوار التاريخية لشعرنا. ونحن لا نريد هنا أن نتجاهل قدر شعراء القصائد في القرون الرابع والخامس والسادس، أو قصائد الغزل في القرنين السابع والثامن، بل إن مكانتهم محفوظة على قدرها وقيمتها وتفوّقها، غير أن هذه المائتي سنة تُعدّ من الحقب الوضّاءة جداً في تاريخ الشعر الفارسي.

إحدى السِمات التي تتميز بها هذه المائتي سنة، هي كثرة عدد الشعراء. ففي هذين القرنين الذين أتحدّث عنهما تلاحظون أن عدد الشعراء في إيران، وفي الهند، وفي أفغانستان، وفي بلاد ما وراء النهر ــ وهي المنطقة التي تقسّمت اليوم وللأسف بين طاجيكستان وأوزبكستان، وهي منطقة تضم بخارى وسمرقند وغيرها من البقاع الطاجيكية الأُخرى التي تتحدّث اللغة الفارسية ــ عدد يدعو إلى الدهشة. ففي هذه الفترة كان هناك الآلاف من الشعراء المفلقين الذين لا ينظمون الشعر فحسب وإنّما كانوا شعراء حقيقة. لعلّهم ليسوا كلهم من الشعراء البارزين، غير أنهم كانوا شعراء بمعنى الكلمة. ومن بين هؤلاء الآلاف من الشعراء الذين ذكرت هذا العدد لهم على وجه التقريب، ربّما يمكن القول إن المرء ربّما يستطيع أن يعثر في تلك الحقبة على مائة شاعر جيّد. ومن بين هؤلاء المائة شاعر ربّما يستطيع المرء أن يعثر على عشرة شعراء من الدرجة الأولى من أمثال صائب، وكليم، ومحمد جان قدسي، ونظيري النيسابوري. هكذا كانت أوضاع تلك المائتي سنة من حيث الكمّ الشعري.

أحد أوجه الشبه بين عصرنا وبين تلك الفترة تتمثّل في هذا الكمّ من الشعراء؛ فعدد الشعراء في بلدنا اليوم لا سابقة له في أي فترة ــ سواء في هذه الفترة التي عشناها نحن وشهدناها وكنا على ارتباط مع شعرائها، أم ما سمعناه حول الماضي ــ إنَّ عدد الشعراء في بلدنا اليوم شبيه من حيث الكمّ بتلك الفترة التي امتدت لمائتي سنة. وهذا طبعاً بفضل الثورة. فالثورة قد نقلت المعارف،

والفن، وكل شيء إلى أوساط الشعب، وجعلته في أوساط المجتمع، ولـــذلك أخـــذ بالانبثـــاق والظهور. اليوم لدينا في البلد الكثير من الشعراء، ابتداءً من اليافعين في المدارس الابتدائية، وإلى المدارس الإعدادية، وإلى الشباب المعطاء، وإلى متوسطي الأعمار وكبار السن. أي لو شاء المرء أن يجري حساباً لوجد أن عدد شعرائنا اليوم كثير جداً. وهذا ما يتعلّق طبعاً بمدّة الثلاثين ســـنة الماضية. وإذا استمر الحال على هذه الوتيرة بإذن الله ـــ أي إذا سرنا قُدُماً على هذا المنـــوال، وحصل تشجيع للشعر، واستطاع الشعراء الجيدون تربية الشعراء الأصغر منهم ـــ فمن المؤكّد أن عدد شعرائنا سيفوق عدد شعراء تلك الفترة.

الوجه الآخر من الشبه بين هذه الفترة وتلك الفترة ذي المائتي سنة هو التجديد في المضامين. ففي أي من الفترات الأُخرى لم يسبق أن وجدت كل هذه المضامين الجديدة وهذا الكلام الحـــديث، طريقها إلى الشعر، بحيث عندما يظهر مضمون جديد، تأتي تبعاً لوجود المضمون الجديد صياغات جديدة أيضاً؛ أي إن حاجة المضمون إلى اللفظ تقتضي من الشاعر أن يستفيد من ذوقه ويوظّف فنّه من أجل الإتيان بصياغات جديدة. طبعاً ربّما تحصل في مستهل الأمر حالات من البدائيـــة، ولكن تدريجياً تنضج اللغة وتستقيم وتزداد جزالة ورصانة.

في هذه الليلة وفي هذا الحشد من الذين قرأوا الأشعار ـــ أشعار الشباب، وأشعار النساء، وأشعار الرجال ـــ أُلاحظ أن الكلمات ناضجة ورصينة؛ والألفاظ قوية وجزلة، وبالنحو الـــذي يـــودّ الإنسان أن يشاهده في الشعر. وأمّا المضامين فهي إلى ما شاء الله. إنّ الإنسان عندما يقرأ ديوان صائب، أو عندما يقرأ دواوين شعراء كبار من أصحاب المضامين الثرّة من أمثال بيدل وغـــيره، ربّما يقول إنّهم لم يتركوا شيئاً [من المعاني] لغيرهم؛ فهم قد جاءوا بكل ما يخطر وما لا يخطـــر على بال الإنسان وصاغوه في قوالب شعرية وبيّنوه، غير أنّه بعد ذلك يلاحظ عكـــس ذلـــك، وحسب قول صائب:

يمكن الحديث عن طرة الحبيب عمراً

فلا يحزنك الظن أنّه لم يبق مضمون

لقد قال «عُمْراً» ولكن يمكن الحديث عن طرة الحبيب دهراً. فاليوم حين يشاهد المرء كل هذه المضامين الجديدة في هذه الكلمات التي تستحق النظر والتأمّل والدقّة عن جدارة، يجد أنه يدعو

إلى الاستحسان. وفي رأيي إن هذا يمثّل الوجه الثاني من الشبه بين شعرنا اليوم وشعر تلك الفترة المائتينية.

طبعاً نحن لا زلنا اليوم نترقّب بروز شعراء من أمثال صائب، ومحمد جان قدسي، ونظـــيري. ولا أودّ أن أكون قد بالغت في قولي هذا. فليس لنا أن نقول بما أننا نشبّه فترتنا بتلك الفتـــرة، إذاً فلدينا اليوم شاعر من مستوى صائب، أو لدينا كليم، أو لدينا نظيري، أو لدينا طالب آملي، أو لدينا محمّد قُلي سليم طهراني، كلا، وللإنصاف أقول، أنه لا زال هناك الكثير حتّى يصل شعراؤنا إلى تلك المرتبة العليا الممتازة القليلة النظير لشعر من ذكرتُ من الشعراء أو الكثير غيرهم إلى ما شاء الله.

حسناً، استفيد الآن من هذا الموضع، وأقول ملاحظة أُخرى لشعرائنا الجيدين الشباب هؤلاء ـــ وهم كلّهم والحمد لله شعراء ومبدعون ويصوغون المضامين ولديهم شجاعة التعبير ـــ أقول لهم: أن ما سمعته من الأشعار في هذه الليلة، كان معظمه جيداً جداً. ولكن اعلموا أن عبارة «جيـــد جداً» لا تعني «كمال الجودة». فعبارة «جيد جداً» قد تكون عشر «كمال الجودة». والأعشار التسعة الأُخرى لا زالت أمامكم؛ أي لا تتوقفوا. فالمشكلة لدى كل من يبدعون في مسار مـــن المسارات، هي أنهم يظنون أن هذه هي نهاية الطريق. فلو أن شخصاً لديـــه صـــوت جميـــل في الإنشاد، ويلقى منّا الثناء ونقول له: «أحسنت، إن إنشادك جميل»، فإذا ظنّ أنّه لن يكون إنشاده أفضل من هذا؛ فمن المؤكّد أنه سيتوقّف عند هذا الحد. ومن بعد التوقّف مباشرة يهبط ويتدنّى. وعليه أن يعلم بأنه يمكن الإنشاد بأفضل من هذا. وهكذا الحال في كل مناحي الحياة. وهكـــذا الحال في كلّ الأعمال التي رأيناها. فالشعور بالوصول إلى الغاية والهدف يورث التعب ويؤدّي إلى الركود. إنكم لم تصلوا إلى الغاية بعد. لقد سرتم إلى الأمام بشكل جيد جداً، وأنتم على مستوى جيد جداً؛ ولكن كما قلنا فإن عبارة «جيد جداً» قد تعني أحياناً عشر «كمال الجودة»، وعليكم أن تستجمعوا التسعة أعشار الأُخرى؛ فاسعوا، واعملوا، وكِدّوا، وسيروا قُدُماً.

ملاحظة أُخرى أودّ أن أُقدّمها إليكم أيها الشعراء الأعزّاء الموجودون هنا، وإلى الشعراء الآخرين الذين يدخلون في عداد ويسيرون ضمن تيار شعر الثورة، وهي أن الشاعر في زماننا هذا وانطلاقاً من خصائص هذا الزمان، يحتاج إلى معرفة دينية عميقة. فأنتم اليوم قد أصبحتم مثـــالاً تحـــذو حذوكم الكثير من الشعوب سواء شئتم أم أبيتم، وسواء علمتم بذلك أم لم تعلمـــوا، وســـواء

صدقتموه أم لم تصدّقوه. وهذه الصحوة الإسلاميّة التي تشاهدونها، سواء أعلنّا ذلك أم كتمناه، وسواء كشفنا عنه أم سترناه، وسواء أظهره الآخرون أم أخفوه فهو متأثّر بالحركة العظيمة للشعب الإيراني. فهذه الثورة العظمى، وهذه الثورة الكبرى، وهذا التحوّل الهائل الذي دمّر التقاليد الطاغوتية وهدم النظام الطاغوتي ونظام الهيمنة، جعل من الشعب الإيراني مثالاً يُحتذى به. وأنتم إذا أردتم العمل بما تقتضيه متطلّبات الأسوة والقدوة، عليكم أن تعمّقوا معرفتكم الدينية ومعرفتكم الإسلاميّة. وهذا ما كان موجوداً في ماضي شعرنا. فأنتم إذا نظرتم تلاحظون أن شعراءنا البارزين كان معظمهم ــ ولا أقول كلّهم ــ على هذه الشاكلة؛ ابتداءً بالفردوسي وإلى جلال الدين الرومي (المولوي) وسعدي الشيرازي وحافظ الشيرازي وجامي. الفردوسي هو الحكيم أبو القاسم الفردوسي. بينما الشخص الذي يسرد الأقاصيص، إذا كان مجرّد سارد أقاصيص وكاتب ملحمة، لا يُقال له حكيم. وتسمية «الحكيم» هذه ليست من عندنا، وإنّما أصحاب الفكر والمعرفة على مرّ الزمان هم الذين أطلقوا عليه تسمية «الحكيم» وكتاب الملوك «الشاهنامه» للفردوسي زاخر بالحِكم. فقد كان هذا الرجل إنساناً مُلِمّاً بالمعارف الدينية الأصيلة. كانوا كلّهم حكماء. وكانت دواوينهم من أوّلها إلى آخرها مليئة كلّها بالحكمة. وحافظ لو لم يكن يفتخر بحفظ القرآن، لما أطلق على نفسه تسمية «حافظ» تخلّصاً. فهو من حفّاظ القرآن. وكان يقول: «أحفظُ القرآن عن ظهر قلب على أربعة عشر رواية». وقرّاؤنا اليوم الذين يقرأون على اختلاف القراءات، لا يستطيعون القراءة عادة على أكثر من روايتين أو ثلاث. في حين أنه كان يستطيع قراءة القرآن على أربعة عشر رواية. وهذا شيء في غاية العظمة. وهذه المعرفة بالقرآن مشهودة في (غزليات) حافظ الشيرازي، بالنسبة إلى من يفهمها طبعاً. وأمّا بالنسبة إلى سعدي فالأمر واضح؛ والأمر بالنسبة إلى جلال الدين الرومي، معروف. وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى جامي وصائب. إذا قرأتم ديوان صائب تجدون فيه معرفة دينية عميقة. وعندما يصل المرء إلى بيدل يشاهد في شعره معارف دينية عميقة ومتداخلة على نحو يثير الدهشة. هؤلاء هم أكابرنا، وهؤلاء هم أئمّة الشعر. وفي الواقع ينبغي القول إن هؤلاء هم رُسُل الشعر الفارسي. لقد كانوا أصحاب معارف دينية. وعليكم أنتم أن تكونوا أصحاب معارف دينية. والسبيل إلى ذلك طبعاً هو التعرّف على القرآن، والأُنس بالقرآن، والأُنس بنهج البلاغة، والأُنس بالصحيفة السجّادية. إن الكثير من الشكوك والهواجس ومواطن الصدأ التي تخيّم على

القلب أحياناً، تتحوّل عند مطالعة النصوص التي ذكرتها، إلى شفافيّة ووضوح، وتعطي الإنسان الإدراك، وتجعله يعرف الطريق، ويعي الأمور، ويشخّص الهدف.

نذكر من ذلك مثلاً أن قراءة كتاب «مقالات معنوية» للشهيد مرتضى مطهّري، يتناسب مع أيّام شهر رمضان هذه. أو الاهتمام بالأحكام الإلهيّة. لقد قلتُ يومذاك في كلمة، نقلاً عن المرحوم الحاج ميرزا جواد آقا الملكي التبريزي أن الحالة المعنوية التي تحصل للإنسان من جرّاء الصوم، وهذا الازدهار الروحي والرقي الذي يطبع الروح على أثر الصوم، كم له من قيمة! والشاعر أيضاً هو من يتفاعل مع حالات الهيجان الروحي، والتلقّيات والإدراكات المعنوية. وهذه هي خصوصية الشاعر، وهذا هو مقتضى رقّة الشاعر؛ حيث إنه يدرك هذه المعارف بكل يُسر. إن الاهتمام بشهر رمضان، وبالصوم، مما يُساعد الإنسان كثيراً في مجال الرقي الروحي. وانطلاقاً من ذلك عليكم أن ترفعوا من مستوى معرفتكم الدينية. وقد أشرتُ طبعاً إلى أن المقصود هو المعرفة الدينية بنمطها المنهجي والعلمي، وليس بالأسلوب الانتقائي والذاتي. نلاحظ بعض الناس يتحدّثون أحياناً عن الدين، ولكنهم في الواقع ينسجون ذلك الكلام من عند أنفسهم، ولا يستندون فيه إلى أي مستمسك ولا سند ولا رؤية علمية، ولا تحقيق علمي. وهذا في الواقع لا يجدي نفعاً كثيراً.

الملاحظة الأُخرى التي أروم التحدّث عنها هي أن شعر الثورة له هويّته؛ وهو في الواقع المتصدي وصاحب الزمام والجولان في الميدان لعرض خطاب الثورة. وهذا ما ينبغي أن تصونوه، وينبغي أن يختفي ويتهمّش وراء بعض المشاعر الهيّاجة الناتجة عن معاناة الشاعر وآلامه من قضية معينة، أو حادثة أو شيء آخر. فمن الطبيعي أن تكون هناك سلبيات في كل مكان. والشاعر يتسم عادة بروح رقيقة؛ لذلك تعتريه آلام من هذه السلبيّات. وهذه الآلام تترك تأثيرها في الشعر طبعاً، ولكن لا ينبغي أن تغطي هذه الآلام على ذلك الخطاب الأساسي للثورة، ولا على الهوية الأصلية للثورة. عليكم أن تتكلّموا من أجل الثورة، وعليكم أن تعملوا وتبذلوا الجهود من أجل خطاب الثورة.

لقد أنجز شعبكم عملاً جباراً. وهذا ما قلته في العام الماضي ــ ويبدو لي أنني قلته في مثل هذه الجلسة ــ وهي أن القضية لا تنحصر في ــ الإقدام على الشهادة ــ طبعاً الإقدام على الشهادة في سبيل الله ووضع الأرواح على الأكف وتقديمها في سبيل الله يمثل ذروة الشرف الإنساني، بل

أن المعارف الدينية على درجة من السِعة، ومعارف الثورة واسعة وزاخرة بالمواضيع وذات عطاء دافق بحيث يمكن الاستفادة منها والتعبير عنها. واليوم هذا واجب يقع على عـــاتق الشـــعراء. يلاحظ المرء أحياناً أن هذه الآلام والمعاناة تؤثّر في قسم من الأشعار والقصائد بحيث تغطي على ذلك الخطاب وتلك القضية الأساسية. وهنا يتناغم صوت هذا الشاعر ويتكـــاتف مـــع تلـــك الأصوات المعارضة لأساس ذلك الخطاب. إن الشعراء الذين كانوا مرتبطين بمراكـــز الســـلطة والبلاط وبتوابع البلاط البهلوي الفاسد، أو كانوا أيضاً ضمن التيارات اليسارية، هؤلاء أعرضوا عن الثورة منذ البداية ولم يلقوا الثورة بالبشر. وهذا الإعراض وهذا الوجه المكفهر الذي لاقوا به الثورة، هو الذي أدّى إلى انبثاق هذا الجانب من الثورة بكل هذه الإبداعات الجميلة والفيّاضـــة بالمشاعر. إن انبثاق كل هؤلاء الشعراء الجيّدين والبارزين من بين أعماق الثورة، ربّما يُعزى في جانب منه إلى إعراض تلك المجموعة من الشعراء عن الثورة. طيّب، إن ذلك التيار الذي يعارض أساس الثورة، وأساس خطاب الثورة، وأساس الحركة التحررية للشعب الإيراني والاتجاه الديني للثورة الإسلاميّة، إذا لم يحرص الإنسان على حفظ تلك الهوية وذلك الخطاب الأساسي للثورة، فإنّ لغته تقترب من لغتهم. ليس لديّ اعتراض ولا معارضة للشعر؛ فالإنسان يرى وضعاً شـــاذاً ومن الطبيعي أن ينعكس ذلك في شعره؛ وهذا لا ضير فيـــه؛ ولكـــن علـــيكم أن تحـــاذروا.. فاعتراضكم هو على ذلك الوضع الشاذ مع الحفاظ على إيمـــانكم بأســـاس خطـــاب الثـــورة الإسلاميّة. ولكن هناك شخص يبدي معارضته لأساس هذا الخطاب؛ وهنا احـــذروا أن تتّحـــد لغتكم مع لغته. فمن الضروري أن يتحرّز شعراؤنا الشباب الأعزّاء من هذا الجانب. فهناك من الناس من هو بعيد عن أساس مبادئ الثورة والنظام والتحرّر والاستقلال ومقارعة الاستكبار؛ فلا تعقدوا الآمال على تشجيعهم ولا تشجيع الأوساط المرتبطة بهم. وحاولوا جهد المســـتطاع أن توثّقوا علاقاتكم في ما بينكم.

لا تفصموا عري الجمع أيها الصحاب المتآلفون

لا تفصموها ففي الشتات شتات وضياعٌ

والسّلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته